# الفصل الثامن

## أعلام المؤرخين فى عصرنا

مدخل : نظريات جديدة فى التاريخ :

ـ كروتشى .

ـ روبين كولنجوود .

ـ التاريخ العالمى ونظرياته .

ـ أوجست كونت .

ـ جيامبا تيستافيكو .

ـ أوزفالد شبنجلر .

ـ أرنولد توينبى .

ـ التاريخ الشامل أو الكلى ، وأهم أعلامه .

obeikandl.com

obeikandl.com

# أعلام المؤرخين فى عصرنا

**مدخل : نظريات جديدة فى التاريخ :**

وصل التاريخ على أيدى من ذكرنا وغيرهم الكثيرين، إلى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلتين، واستقر الرأى على أن التاريخ علم بالمنهج، أى أن موضوعه الأساسى ـ وهو الإنسان ـ لا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين لها دقة قوانين العلوم ، ولكننا ندرسه بمناهج البحث العلمى من استقصاء للمادة ودراستها وتحليلها تحليلاً دقيقاً، ثم استخلاص الحقائق، وقال بعضهم: إن التاريخ لا يسير على قوانين، ولكنه يسير على منطق، فلكل حادث أسبابه وتطوراته ونتائجه المنطقية، وفى إحدى دراساته قال **ج. ب. بيورى** عبارته التى لقيت قبولاً كبيراً: التاريخ علم، لا أكثر ولا أقل. ولكن بيورى نفسه تبين فى دراسته الأخيرة أن عبارة History is a science, no more, no less تحتاج إلى تعديل ؛ لأننا فى الحقيقة لا نستطيع الوصول إلى صورة الماضى كما كانت بالضبط ، وإنما نراها متأثرين بشخصياتنا وخصائص طبيعة كل منا وموقفه من الحياة وذكائه، ومتأثرين بعصرنا ومفهوماته، وعلى هذا فالصورة أو الحقيقة التاريخية نسبية دائماً، ومن هنا حلّت عبارة « التاريخ النسبى Relative History» محل«التاريخ العلمىScientific History»، وهذا يعود بنا إلى الفكرة التى تحدثنا عنها أوائل هذا البحث من أن التاريخ حوار بين الحاضر والماضى، وقال **ج. ب. بلاك** J. B. Black فى مقاله عن فن التاريخ The Art of History:«إن رؤية التاريخ بصورة مباشرة غير ممكنة، وهو لا يُرى إلا بصورة غير مباشرة ـ أى: كما يتجلى فى مرآة عصرنا».وفى محاضرة ألقاها **هنرى بيرين** فى قاعة الجمعية الجغرافية فى القاهرة سنة ١٩٣٣م سمعناه يقول: «إننا نرى حوادث التاريخ كما نرى ملعقة وضعناها فى كوب ماء، فانغمرت إلى ثلاثة أرباعها، فالمغمور فى الماء لا يُرى إلا منكسراً بحسب انكسار شعاع الضوء عند مروره فى الماء». وشيئاً فشيئاً أصبحت النسبية التاريخية Historical Relativism هى النظرية السائدة، وكان هذا

حلاً موفقاً ؛ لأن صورة الماضى « كما كان بالضبط » التى سعى وراءها رانكه ومدرسته، كانت أمراً فى الحقيقة مستحيلاً .

وقال **تشارلس بيرد** Charles Beard عميد المؤرخين الأمريكيين: «إن التاريخ العلمى إنما هو حلم نبيل تبدو الحقائق فيه وكأنها «الحسناء النائمة فى الغابة La belle au bois dormant ، تنتظر المؤرخ المنقذ الذى يقترب منها ونظارتاه على عينيه، ويضع على جبينها قبلة الحياة، فتدب فيها الروح كما تقول الأسطورة». وقبل الحرب العالمية بقليل قال **كارل هاينريخ بيكر** Carl Heinrich Becker ، الذى كان أيضاً من كبار المستشرقين: «إن كل إنسان مؤرخ نفسه ، أى أن كُلاً منا يروى التاريخ على طريقته».وأكد ذلك **كونيارز ريد** Conyards Read، عندما قرر أن نسبية التاريخ The Relativity of History أصبحت القاعدة السائدة.

**كروتشى :**

ولم ير **بندتو كروتشى** Benedetto Croce (١٨٦٦ـ ١٩٥٢م)، أن يسير على هذا المذهب الذى رأى فيه تواضعاً لا يتفق مع أهمية التاريخ فى نظره. كان كروتشى مؤرخاً وفيلسوفاً، وكان له نصيب فى سياسة إيطاليا؛ إذ تولى وزارة التربية والتعليم سنة (١٩٢١، ١٩٢٢م) أى:قبل استيلاء موسولينى والفاشيين على الحكم، وبعد ذلك أصبح خصماً مناوئاً للحكم الفاشى، ولكن مناوأته لم تصل إلى حد التحدى ، الذى ربما كان قد أدى إلى العصف به، فظل دائماً محترماً من جانب السلطات، وإن كان الفاشيون نهبوا داره فى نابولى سنة ١٩٢٦م بعد إعلانه احتجاج أهل الفكر على استبداد الفاشيين، وفى سنة ١٩٤٣م وبعد أن تزعزع النظام الفاشى ألّف الحزب الحر، وأصبح وزيراً بغير وزارة فى وزارة بيترو بادوليو Pietro Badoglio ، التى أعقبت سقوط موسولينى، وشغل نفس المنصب فى وزارة إيفانوى بونومى Ivanoe Bonome (١٩٤٤م) ، وأصبح عضواً فى الجمعية التشريعية سنتى (١٩٤٦، ١٩٤٧م)، وفى نفس السنة أَسَّسَ المعهد الإيطالى للدراسات التاريخية Intituto Italiano di Studi Storici، وتوفى فى داره فى نابولى فى٢٠ نوفمبر ١٩٥٢م .

وقد كتب كروتشى كتباً تاريخية كثيرة من الطراز العلمى التقليدى ، ولكن مقالاته وآراءه كلها نجدها فى مجلة « النقد » La Critica التى أنشأها سنة ١٩١٣م، وظل مديرها ورئيس تحريرها إحدى وأربعين سنة . وعندما تخلى عنها أنشأ كراسات النقد Cuaderni della critica ونشر منها عشرين عدداً ، وهو مشهور بكتابه الكبير: فلسفة الروح Filosofia delle Spirtu الذى قسّمه إلى أربعة مجلدات:

الأول فى علم الجمال Stetica .

والثانى فى المنطق Logica .

والثالث فى فلسفة السلوك Filosofia della condutta .

والرابع فى نظرية التاريخ وتاريخه Teoria e storia della storiografia .

وهذا الجزء الأخير هو الذى يهمنا ، وهو الذى يجعل له مكاناً بين كبار أصحاب المذاهب فى التاريخ .

وكان كروتشى يرى فى نفسه فيلسوفاً من مستوى هيجل ، وكان الكثيرون من أنصاره ينظرون إليه على هذا الاعتبار ، ولكننا عندما نقرأ الجزء الخاص بالتاريخ من «فلسفة الروح» نجد أنه يعوزه الوضوح، وتنقصه تلك الدقة الذهنية التى تميز تفكير هيجل ، وفى كثير من الأحيان نفقد خيط الأفكار . وأنا شخصياً لم أستخرج من آرائه إلا ما وجدته فى طبعات إنجليزية لبعض جوانب فلسفته فى التاريخ ، وكلها مقتبسة من كتاب وضعه هو نفسه ونشر فيه مختارات من كتاباته فى الفلسفة والشعر والتاريخ ، وهذه المختارات وما أضافه هو إليها من تعليقات وشروح ومقدمات هى معتمدى فيما أكتب عنه فى هذا المختصر .

والذى يريده كروتشى بالروح هو روح العصر، أى: لبابه وشخصيته ، والجو السائد فيه ، والأفكار المسيطرة عليه، والنظم والتقاليد التى تحكمه، وهو يقول: «إنك لا تستطيع أن تؤرخ لعصر، إلا إذا ألممت بروحه على هذا النحو الشامل . ويقول كذلك: إنك لا تستطيع أن تؤرخ لرجل، إلا إذا ألممت بظروف عصره كلها، وتمكنت من الإحاطة بظروفه الشخصية أيضاً، حتى أوصافه الجسمانية لابد

من معـرفتها؛ فـهى فى كثيـر من الأحيان ذات أثر بعيـد فى توجيه فكره وحـياته». ومعنى ذلك كله أن التاريخ فى الحقيقة عملية معايشة ، معايشة العصر الذى تكتب عنه ، ومعايـشة الرجل الذى تترجم له، وإدراك روح الموضـوع ـ أياً كان ـ إدراكاً تاماً.

وهذه الروح التى يتحـدث عنها كروتشى هى التى يعبـر عنها كبار الـمؤرخين فى عصـرنا ـ ممن يؤرخـون على مذهب «التـاريخ الشامل Total History» الذى سنتحـدث عنه ـ بجو العصـر أو المناخ التاريخى Historical Climate، وهو آخر المذاهب التاريخية المعتمدة فى عصرنا.

وترجع فلسفة كروتشى فى بعض نـواحيها إلى آراء «جيامبا تيـستا فيكو» التى سنوجزها، وتـرتكز فى بعض نواحيهـا الأخرى إلى تجـربته الشخـصيـة، ونشاطه الواسع فى النقـد الأدبى والتاريخ، ولهـذا نجده يسـتمد آراءه من الواقع الـتاريخى الذى لمسه فى أثناء معاناته لكتابة التاريخ، ومحاولاته تفسير الأحداث. وهو يرى أن فلسفـة التاريخ ينبغى أن تنبع من التـاريخ نفسه، أى: لابد أن تقـوم على أساس الوقائع الثابتة، فهى على هذا تفسير للوقائع، لا فلسفة لها، وكلا الوقائع وتفسيرها ينبـغى أن يقـومـا على فهـم كامل لروح المـوضـوع، ومع هذا التـمـسك بالواقع التاريخى، والتشدد فى القول بأنه ينبغى أن يكون أساسـاً لأى فلسفة تاريخية ـ مما يجـعل الإنسان يتـصور أن كـروتشى يرى أن فلسفـة التاريخ مـا هى فى الواقع إلا تفسير له ـ على الرغم من ذلك نجد كروتشى يميل إلى الجانب المثالى أو التأملى فى فلسفته للأحداث، مما يوحى بأن هناك اضطراباً فى تفكيره الفلسفى التاريخى، وهذا صحيح إلى حد بعيد.

ومن أطرف آراء كروتشى قوله بأن هناك فـرقاً أساسياً بين المعرفـة التاريخية، والمـعرفـة العلمـية. والأولى فى نـظره لون من الثقـافـة أو الإدراك الفكرى. وهو يقول: «إن الماضى فى ذاته لا وجود له»، وهو يتبع فى ذلك نفراً من العلماء الذين قالوا بذلك لينقـضوا القول بأن التـاريخ علم ، فإذا لم يكن للماضى وجـود فعْلِىٌّ، فذلك لأنـه لا يوجد إلا فى ذهن المـؤرخ. ومعنى ذلك أن الحـوادث الماضـيةَ لا

وجود لها بالفعل إلا إذا فكر الإنسان فيها. فى هذه اللحظة توجد وتصبح بالنسبة للمؤرخ المعنىً بها حوادث معاصرة، ومن هنا يقول كروتشى: «إن التاريخ كله معاصر على هذا المعنى»، ولنضرب لذلك مثالاً من تاريخنا فنقول: إن ثورة الزنج التى قامت فى عصر الخليفة العباسى المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢م)، وبعض سنوات خلافة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م)، كانت من أعظم الحركات الاجتماعية فى تاريخ الدولة العباسية، وكانت لها آثار سياسية واجتماعية بعيدة المدى، ولكنها انتهت وتلاشت آثارها بعد ذلك فيما دهم الدولة العباسية من تدهور وأحداث جسام، فهى على هذا حادث مضى تماماً واندرج فى صحائف التاريخ، ولم يعد له وجود فى الواقع. فإذا فكر مؤرخ فى دراسة ثورة الزنج وبحث عنها «وجدت» فى ذهنه، وأصبحت حادثاً واقعياً بالنسبة له؛ لأنه يشغل نفسه بها ويعيش فيها. وهذا الرأى الذى يستوقف النظر لطرافته، لا لعمقه يبدو وكأنه استطراد مع القول بنسبية التاريخ. ويمكن تلخيصه على هذا الأساس بالقول بأن التاريخ حى بالنسبة للمؤرخ أو لأبناء العصر، وميت بالنسبة لغيرهم.

وكان كروتشى يرى أن الفكر التاريخى أعلى وأوثق من أى فكر آخر؛ لأنه يعتمد على واقع وتجربة ومعاناة، وأن القول بنسبية التاريخ ليست مظهراً من مظاهر ضعف التفكير التاريخى، بل تأكيد للقوة الذهنية والتخيلية. ويمكن القول بأن كروتشى كان حصيفاً ناقداً، ومصيباً فيما كتب عن تاريخ إيطاليا، أما كتاباته فى فلسفة التاريخ فيشوبها الغموض والتناقض.

**كولنجوود:**

ولكن آراء كروتشى كانت ذات نفع لمعاصر له من كبار الفلاسفة والمؤرخين، وهو روبين جورج كولنجوود Robin George Collingwood (١٨٨٩ـ ١٩٤٣م)، وهو علاّمة إنجليزى صافى الذهن، بعيد النظر، تخصص أول الأمر فى التاريخ ، وخلَّف لنا كتاباً من أحسن ما كتب فى تاريخ إنجلترا فى العصور الرومانية Roman Britain (١٩٣٦م)، وهو جزء من تاريخ أوكسفورد لإنجلترا، وشغل وظائف أستاذية التاريخ فى أكثر من جامعة إنجليزية، وجعل همه التقريب بين الفلسفة والتاريخ ، وقال: «إن الفلاسفة منذ أيام ديكارت شغلوا

أنفسهم بمشاكل العلم والمناهج ومعان أخرى لا يمكن تطبيقها عند دراسة الفكر أو العمل».وبعد أن رأى الدنيا تخوض غمار حربين عالميتين أيقن أن العلوم لم تساعد كثيراً فى حل مشاكل البشر، وأن الفلسفة إذا مزجت بالتاريخ كان من الممكن أن تعين على إيجاد هذا الحل، وقال: إن دراسة الواقع التاريخى ربما أعطت الإنسان نوعاً من الحكمة الواقعية تمكّنه من العثور على طريق قويم. وقد جمع آراءه فى كتاب «فكرة التاريخ The Idea of History» الذى نشر بعد وفاته سنة ١٩٤٤م وهى رسالة مصوغة فى أسلوب جميل، حافلة بالآراء الصادقة، ولكنها لا تتضمن نظاماً فلسفياً متناسقاً.

وقد كتب كولنجوود كتاباً آخر عن فلسفة التاريخ، وهو يحمل هذا العنوان بالفعل Philosophy of History ، وهو يعتبر فى العادة أقل مستوى من «فكرة التاريخ» ولكنه ـ على أى حال ـ أوضح، ويستطيع الإنسان أن يخرج منه بشىء نافع. ويؤيد كولنجوود هنا القول بنسبية التاريخ[1] ولكنه ينكر أن المؤرخ يتبع هواه فى اختيار الطريق الذى يجمع به الشواهد أو الأدلة التاريخية على ما يريد قوله، ثم يتابع كروتشى فى تفكيره، ويقول: إنه ما دام التاريخ ابتداعاً وخلقاً للمؤرخ نفسه، أى : ما دام الماضى لا يُبعث حياً، إلا إذا وجد المؤرخ الذى يهتم بإعادته إلى الحياة ، فإن عودة الحياة إلى الماضى لا تحدث إلا إذا سأل المؤرخ سؤالاً ـ أى أن ثورة الزنج مثلاً لا تكتسب أهمية إلا إذا تساءل المؤرخ عن ماهيتها، ومضى يبحث عن هذه الماهية. ونفى كولنجوود القول بأن المؤرخ يتخير ما يريد بحثه من حوادث الماضى ؛ لأن هذه الحوادث نفسها غير موجودة ، إنما هى توجد فقط عندما يريد المؤرخ ذلك. وكان الناس قبل كولنجوود يقولون: إن الماضى أو التاريخ كله لا وجود له إلا فى ذهن المؤرخ، وعلى هذا فرأىُ كولنجوود هذا ليس إلا صياغة جديدة لهذه الفكرة، ومن هنا نفهم كيف كان كولنجوود من المتحمسين لما قاله كروتشى من أن التاريخ كله معاصر، وقال: «إن التاريخ كله يروى المؤرخ أحداثه ويضعها فى عالم الحاضر، لا كتاريخ

---

( ١ ) سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد .

بالضرورة، بل كتاريخ للتاريخ». وربما أراد أن يقول بذلك إن كتاب التاريخ الراقد على رف فى المكتبة لا يصبح تاريخاً إلا إذا تناولته وفتحته ومضيت تقرأ فيه؛ هنا تدب فيه الحياة ، وقبل ذلك كان كل ما فيه شيئاً ميتاً.

ومن هنا استنتج كولنجوود أن التاريخ ليس له تفسير واحد، بل إن كُلاً منا يفهمه ويفسره على قدر ما يستطيع ذهنه، وهذا التفسير لا يمكن أن يتحلل من شخصية المؤرخ وثقافته، وهذا يفسر لنا كيف أن كل مؤرخ يرى فى نفس الحوادث شيئاً آخر، وعلى هذا فإنه لا يمكن القضاء على العنصر الشخصى: The Subjective Element ، وأن التاريخ الموضوعى الصِّرْف Pure Objective History يكاد أن يكون لا وجود له.

وليس معنى ذلك أن كولنجوود يرى أن التاريخ كله خاضع للهوى، والأحكام الفردية التعسفية، ولكنه يقول إن المسألة مسألة وجهة نظر، ورأى صادر عن إنسان له شخصيته وتكوينه وخلفيته، وقال: «فإذا كان لى مثلاً رأى فى يوليوس قيصر يختلف عن رأى مومسن، فهل معنى ذلك أن واحداً منا على خطأ؟ الجواب: لا؛ لأن تفكيرى التاريخى مبنىٌّ على مَاضِىَّ وتجربتى، لا على ماضى مومسن وتجربته، إننى ومومسن نتفق فى أشياء كثيرة، وفى أحيان كثيرة نتفق فى نواحٍ من ماضينا، ولكن حيث إننا إنسانان مختلفان، وكل منا يمثل ثقافة معينة، وينحدر من أصلاب خاصة به، فوراء كل منا ماضٍ يختلف عن ماضى الآخر، وكل شىء فى ماضى مومسن لابد أن يعانى انحرافاً عندما يدخل فى ماضىَّ».

ويقول: «وأخيراً، وحيث إن الماضى نفسه لا شىء، فإن معرفة هذا الماضى ليست ـ ولا يمكن أن تكون ـ هدف المؤرخ ، إنما هدفه ـ وهو هدف كل مخلوق يفكر ـ هو معرفة الحاضر ، إلى هذه الغاية ينبغى أن ينتهى كل تفكير ، وحول هذه الغاية ينبغى أن يدور كل شىء. ولكن المؤرخ لا يشغله إلا مظهر واحد من الحاضر ، وهو : كيف صار إلى ما هو عليه؟ وعلى هذا الاعتبار يكون الماضى مظهراً للحاضر ووظيفة من وظائفه، وعلى هذه الصورة ينبغى أن يظهر التاريخ

فى نظر المؤرخ الذى يفكر بذكاء فى عمله، أو يحاول أن يصل إلى فلسفة التاريخ » .

وقد كان الكثيرون ممن ينقدون التاريخ ومنهجه يقولون: إن عمل المؤرخ يعتمد على «المقص وزجاجة الصمغ Scissors and Paste»، أى أنه يقطع صفحات مما قال الأولون ويلصقها بعضها إلى جانب بعض، ويعمل منها تاريخاً، وهذا يصدق ـ ربما ـ على الكثيرين من مؤرخى العصور الوسطى ، وقد أنكر كولنجوود ذلك إنكاراً شديداً وقال: «إن المؤرخ الحق ليس عبداً لمراجعه» وقال: «إن المقص والصمغ لم يكونا قط أساس المنهج التاريخى» ، فإن المؤرخ الحق لا يتقيد بمراجعه إلى الحد الذى يجعلها قيداً له، بل إن للمؤرخ الحق فى أن يقوِّم مراجعه نفسها إذا تبين له فيها الخطأ أو الكذب.

وقد أورد كولنجوود هذه الآراء فى تاريخ حياته وعنوانه An Autobiography الذى نشره سنة ١٩٣٩م، وهو من أجمل وأذكى ما يقرأه المؤرخ أو المفكر بصفة عامة. ويصادف القارئ فى هذا الكتاب الكثير من الآراء التى لا يقبلها، ولكن المؤرخ يشعر وهو يقرأها أن هذا المفكر الفذ يؤكد له أهمية عمله، ويكشف له عن آفاق واسعة للعمل التاريخى ؛ فقد كان كولنجوود مقتنعاً تماماً بأهمية التاريخ، وفى كتاباته يشعر الإنسان بجلالة هذا العلم وقدره، وإذا كان الكثيرون قد نقدوه لقوله بأن للمؤرخ أن يعتمد إلى جانب مراجعه على إدراكه الشخصى وتصوره للأشياء حتى لو خالف تلك المراجع، إلا أن كل مؤرخ ـ يحترم صنعته ويشعر بقدرها ـ لابد أن يشعر بتقدير وإجلال لهذا الرجل الذى أنصف التاريخ والمؤرخ معاً، واستطاع بذكائه وصدقه وإخلاصه للحقيقة العلمية أن يضع التاريخ فى وضع رفيع بين العلوم، سواء أكانت نظرية أم عملية.

**التاريخ العالمى ونظرياته :**

وهكذا نصل إلى أشهر المؤرخين المعاصرين وأبعدهم أثراً فى الفكر الفلسفى التاريخى فى أيامنا هذه وهم جماعة من أهل التاريخ ينتهون عند علم من أعلام التاريخ وهو **أرنولد جوزيف توينبى** Arnold. J. Toynbee، الذى ولد فى نفس

العام الذى ولد فيه كولنجوود ( ١٨٨٩م)، واتجه بالدراسات التاريخية اتجاهاً أشمل وأوسع مما قصد إليه كولنجوود، واجتهد فى أن يتحقق مما إذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب، ومعنى ذلك أنه وجّه اهتمامه إلى ما يسمى أحياناً بما وراء التاريخ Metahistory، أى: البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التى تسيِّر التاريخ.

**أوجوست كُونْت:**

وعاد توينبى بالفكر التاريخى إلى حيث تركه المفكر الفرنسى المعروف **أوجوست كونْت** Auguste Conte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م)، الذى اجتهد فى أن يطبق على الإنسانيات ـ والتاريخ خاصة ـ نفس المناهج العلمية التى تطبق على العلوم الطبيعية، وقد ركز كونْت اهتمامه على علم الاجتماع ، وهو ـ دون شك ـ منشئ هذا العلم فى الغرب قبل **دوركايم** Durkheim بزمان طويل، وهنا نجد كونْت قريباً جداً فى منهجه وطريقة علاجه لما يدرسه من منهج ابن خلدون، وربما كان من المفيد أن يعكف بعض المشتغلين بالفلسفة عندنا بعمل مقارنة بين مناهج الرجلين . على أى حال لا يعد **كونْت** مؤرخاً أو مفلسفاً للتاريخ؛ لأن ميدانه الحقيقى هو فلسفة العلوم ، ولكنه ـ بإلحاحه على البحث عن قواعد وقوانين لسير التاريخ ـ أنشأ ما يسمى **بالإيجابية التاريخية** La positivité historique، أى: التزام الدقة العلمية فى كتابة التاريخ، مع البحث عن المنطق الدقيق وراء كل حادث وتطور. وقد لقيت الإيجابية نجاحاً كبيراً. وجعلت أى مُقدم على التأليف فى التاريخ يبذل غاية وسعه فى استقصاء مادته، وتنقيتها وتحليلها بأقصى ما يستطاع من الدقة، أى: بأدق ما يستطاع من المنطق. وكان يرى أن دراسة التاريخ تقدم لنا المادة التامة لفهم المجتمع .. وإلى هذا الرجل يرجع الفضل فى إنشاء كرسى التاريخ فى الكوليج دى فرانس سنة ١٨٣١م . وقد وضح الرجل منهجه فى كتابين يعتبران من أسس الفكر الحديث، وهما: «دروس فى الفلسفة الإيجابية (١٨٣٠ ـ ١٨٤٢م)، ومنهج للسياسة الإيجابية Systéme de Politique positiviste (١٨٥١، ١٨٥٢م)». وهو لا يزال يكرر ـ فى كتابيه هذين ـ رأيه فى أن المجتمع الإنسانى قابل للدراسة على الأساس العلمى .

وقد رأينا كيف عمل كروتشى وكولنجوود من بعده فى تحرير التاريخ من العلم الطبيعى، والمؤرخين من محاولة تطبيق مناهج العلم الطبيعى على مجرى حياة البشر ، ومن فضائل كولنجوود أنه نصح المؤرخين بأن يكفوا عن السعى وراء البحث عن قوانين عامة للتاريخ ، وقال إن الأجدى هو الاجتهاد فى فهم الحوادث كما فهمها أهل عصرها ، وعرضها فى إطار الزمن الذى دارت فيه لا فى إطار عصرنا ، ففى العصور الوسطى مثلاً كان الملوك إذا صعدوا إلى العرش كان أول همهم القيام بأعمال عسكرية ضد جيرانهم ، لا بقصد العدوان ، وإنما إعلاماً للجيران بأن الملك الجديد قوى جسور لا يصطلى بناره ـ كما يقولون ـ فيهابوه ويحترموا حدوده ، فإذا لم يفعل ذلك ظنوه ضعيفاً فقاموا بالعدوان على بلاده ليعجموا عوده ، وعلى هذا فلا ينبغى أن ننظر إلى كل حروب الملوك والأمراء فى العصور الوسطى على أنها أعمال عدوانية ، بل هى روح العصر كانت تقتضى ذلك . هكذا ينبغى أن نفهم التاريخ فى ضوء عصره وظروفه وأفكاره الشائعة ، حتى نطمئن إلى أن فهمنا للحوادث صحيح .

ولكن فكرة البحث عن قواعد وقوانين تُسيِّر التاريخ العام ما زالت مع ذلك تراود ذهن المؤرخ الطموح الذى لا زال يأمل فى الوصول إلى سر التاريخ ، ومن هذا الطراز لدينا فى العصر الحديث عدد ليس بالقليل ، ولكنهم لم يعودوا يصدرون آراء فلسفية قائمة على التأمل ، وإنما هم لجأوا إلى ما عرف عند الألمان باسم التحليل التاريخى، أو مورفولوجية التاريخ Geschichsmorfologie، أو تحليل الحضارات Kulturmorfologie ، والمراد بذلك أن يأخذ المؤرخ مجموعة من الحضارات يعتبرها نماذج ، ثم يحلل عناصرها ومكوناتها، ويحاول أن يجد عناصر متشابهة بينها تساعده على أن يرى إن كان هناك بالفعل ـ أو لم يكن ـ نظام واحد يمكن أن يطبق عليها جميعاً .

وهذا المفهوم للتاريخ العالمى يختلف عن مفهومه التقليدى الذى يقوم على رواية تاريخ البشر عصراً عصراً ، أو أمةً أمةً، كما نجد مثلاً فى تاريخ كيمبردج بأقسامه الثلاثة: القديم والوسيط والحديث، ويختلف كذلك عن مفهومه الفلسفى الذى يبحث عن القوى العامة التى تحرك مسار التاريخ، كما رأينا هيجل ينظر إلى

التاريخ أو العملية التاريخية كما كان يسميها Geschichtsprozesse ، على أنها عملية صعود منطقى إلى مستويات عقلية أو فكرية جدلية Dialektische Stufen ، تنتهى آخر الأمر إلى تحقيق ما تقصد إليه القوة العليا المدبرة لشئون الكون Weltgeist ، من توحيد العالم فى كلٍّ واحد Weltganz ، يعيش فى حرية وأمان ، وكان يحسب أن الإنسانية قد اقتربت من هذا الهدف الأعلى بظهور الدول الأوربية المنظمة القائمة على القانون Rechtsstaaten، وكان يرى فى الدين والعلم والفن مظاهر مرتبطة بما يتحقق من الاقتراب من ذلك الهدف الأخير الذى قصد إليه العقل الكونى الأعلى ـ أى: الخالق سبحانه فى رأى هيجل ـ وقد رأينا كيف هدم ماركس هذا البناء الفلسفى بقوله ألاّ وجود لهذا العقل أو الروح الأعلى، وأن المحرك الحقيقى للتاريخ هو الاقتصاد والإنتاج ، أى أنه هبط بالفلسفة التاريخية من السماء إلى الأرض ، وقال إن ما ذكره هيجل من دين وعلم وفن ، وظن أنها لُباب التاريخ وأساسه، إنْ هى إلا قشرة ظاهرية لبنية التاريخ، وقد سمّاها بالبناء العلوى Ueberbau – أو Super structure ، كما يترجمها الإنجليز ـ يقوم أساساً على إنتاج الطبقات العاملة، ويعتمد على عمل الكادحين الذين هم فى رأيه بناة التاريخ وصناع الحضارة .

**جيامبا تيستا فيكو :**

هذا التصور الجديد للتاريخ العالمى يرجع إلى آراء فيكو فى قيام الدول وسقوطها ، ومحاولة البحث عن أسباب القيام والسقوط ، وقد رأينا أن فيكو يحاول أن يرد القيام والسقوط إلى عوامل بيولوجية ـ أى أنه فعل ما فعله ابن خلدون من تشبيه الدول والحضارات بالنباتات والحيوانات ، وقوله بأن لها أعماراً لابد أن تمر فيها .

ونحن نذكر أن **ابن خلدون** أشار فى تحليله إلى أن الأمم ـ فى صعودها ـ تتطلع نفوس أهلها إلى عظائم الأمور وتستسهل الصعاب، وفى أيام هبوطها تسقط همم أهلها وتصعب عليهم الصغائر، وهذه لمحة عبقرية سمّاها متفلسف تاريخى ألمانى هو **فونت** Wundt باسم نفسية الشعوب Voelkerpsychologie ،

وتحدث عنها **كارل لامبرخت** Karl Lamprecht فى تأريخه للحضارات على أساس نفسانى .

وكان لامبرخت من أوائل من فكروا فى البحث عن سر التاريخ عن طريق تحليل عدد من الحضارات ، والبحث عن العوامل التى سببت قيامها وهبوطها ، واستخراج المعانى من ذلك التحليل ، أو ما يسمى بالدلالات التاريخية للتحليل الحضارى Kulturmorphologische Geschichtsdeutungen .

وقد يكون لامبرخت قد استوحى فى ذلك آراء مؤرخ روسى يعتبر من أوائل دعاة الحركة الصقلبية ـ أى: السلافية ـ وهو **نيكولاى دانيليفسكى** Nikolai Danielewski ( ١٨١٢ـ ١٨٨٥م)، وفى محاولته لتحديد الشخصية السلافية قام دانيليفسكى ببناء نظرية كاملة تقوم على أساس من مورفولوجية التاريخ، فاختار عشر حضارات، رأى فيها أنها حضارات مُبتدِعة أو بانية للحضارات، ثم قسمها على أساس لغوى، فجمع الحضارات الإيطالية والفرنسية والإسبانية مثلاً فى وحدة حضارية واحدة، وكان هدفه من ذلك أن يبين آخر الأمر أن هناك وحدة حضارية صقلبية، أو سلافية تتزعمها روسيا، ولكنه كشف عن جهل عميق بما هو خارج عن النطاق الأوربى، فقرر أن هناك أجناساً ذات أثر سلبى أو مخرِّب للحضارات.

**شبنجلر :**

وقد تناول هذه الفكرة ـ وسار بها إلى مدى أبعد ـ مؤرخ ألمانى أصيل، هو **أوزفالد شبنجلر** Oswald Spengler (١٨٨٠ـ ١٩٢٣م)، فقد كانت نظرته أوسع وأفقه وأشمل ، فأدرك من التوفيق فوق ما أدرك لامبرخت، ودانيليفسكى، وقد بسط آراءه فى كتابه المشهور «أفول نجم الغربUntergang des Abendlandes»، الذى ظهر جزؤه الأول سنة ١٩١٨م، وأثار ضجة كبرى، إذ أنكره المؤرخون المحترفون، لأنه هدم الكثير من آرائهم، ودعاهم إلى إعادة النظر فيما يتناولون من علم التاريخ، أما جمهور الناس فقد أعجبوا بكتاب شبنجلر وتهافتوا عليه ؛لما رأوا فيه من جدة وشمول، ثم ظهر جزؤه الثانى سنة ١٩٢٢م مع نسخة معدلة من جزئه الأول.

رأى شبنجلر تشابهاً بين قيام الحضارات ونموها ووصولها إلى القوة ، ثم انحدارها، وتصور أنها عملية بيولوجية شبيهة بما يجرى على الكائنات الحية من تطور طبيعى عضوى Naturhafte prozesse، بالضبط كما قال ابن خلدون . وإذا كان نظر ابن خلدون لم يتخط نطاق الحضارة الإسلامية ودولها إلا فيما ندر ، فإننا لا نستطيع بسبب ذلك أن ننكر عليه فضله فى أنه أول من قال بهذا الرأى ، وإن كان هذا الرأى فى ذاته غير صحيح .

درس شبنجلر سبع حضارات ، وحاول أن يستكشف أسباب صعودها وسقوطها، وكل واحدة من الحضارات التى اختارها تتميز بسيادة طراز معين من الناس ـ ما بين رجال دين أو عسكريين أو فلاسفة ـ عليها، وحاول أن يرى كيف سارت الأمور فى كل منها، فتبين ـ بحسب ما أدى إليه نظره ـ أنها جميعاً مرت بعصور إنشاء ونمو ونضج ثم انحدار، كأنها كلها مرت بأعمار محددة، وكان شبنجلر بارعاً فى عرضه، ولكن سيطرت عليه فكرة التشابه بين الدول والكائنات الحية، وهى فكرة غير سليمة؛ لأن الدول أو المجتمعات لا تشبه الكائنات الحية، فإن الكائن الحى يبدأ فى الموت بعد أن يصل جسمه إلى درجة معينة من النمو، فى حين أن الشعوب أو الجماعات يتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل، ونحن نقول مثلاً إن الكائن الحى يشيخ، وإن الأمة تشيخ، فأما شيخوخة الكائن الحى فمفهومة، وأما شيخوخة الأمة فكيف تكون؟ هل يولد أطفالها جميعاً فى فترة ما شيوخاً؟

الحق أن شيخوخة الأمة مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن شيخوخة الكائن الحى، وهى فى الحقيقة ليست شيخوخة، وإنما هى ضعف وفساد وظواهر اجتماعية وسياسية تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية.

ونتابع شبنجلر فى تحليله للحضارات التى اختارها ، فنقول: إنه ذهب إلى أن للحضارات أجهزة وأعضاء Kulturen sind Organismen، وأن كل حضارة تمر فى مراحل عُمْرٍ تشبه مراحل أعمار البشر ، وقال فى ذلك عبارته المشهورة وهى: «Jede kultur läuft Alterstufe des eingenen Menschen».ولكل حضارة منها

روح أو لباب ، وشبنجلر لا يستعمل هنا لفظ Geist، الذى استعمله هيجل، وإنما هو يستعمل لفظ Seele أى: روح، وهو يقول إن الفترة الأولى من حياة أى حضارة تشبه العصور الوسطى الأوربية. وهى فى نظره ـ على هذا ـ مرحلة طفولة أو صبوة، ثم تدخل فى مرحلة الوعى لنفسها والتنبه إلى قواها، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة الضعف والهبوط، وإننا نستطيع أن نستشف روح كل حضارة فى معاملات الناس فى نطاق أى حضارة، ومقدار ما فى كيانها من قوة، وما تمر فيه من مراحل العمر، وطابعها الخاص كذلك، وعبارته بنصها:

« In den Handlungen der Menschen wird dabei Kraft, Alter und Eigenart Jeder Kulturseele sichtbar ».

وقد أتينا بها ، لأنها موضع نقد شديد ؛ لأنه ذهب فى تشبيه دورة الحضارة بدورة حياة الكائن الحى إلى مدى مسرف فى البعد ، فإن التطابق بين حياة الأمم وحياة الأفراد كما قلنا غير موجود إلا فى الظاهر فقط . وقد عدل شبنجلر عن بعض آرائه تلك فيما بعد ، ولكن صلب نظريته ظل قائماً . واليوم لا يأخذ أحد بنظرية شبنجلر التى تتلخص فى قول أحد تلاميذه :

« Spenglers Deutung der Weltgeschichte als naturhaftes Prozesse des Wachstums und Verfalls».

(تصوير شبنجلر التاريخ العالمى فى صورة عملية نمو وتفكك طبيعية). وأضاف ـ مقتبساً من كلام شبنجلر: أن ملاحظة سير الدورة Zyklus الحتمية وتتبع أطوارها يمكّننا من الحكم على مستقبل أى حضارة، وذلك بدراسة ما قطعته من أطوار دورة حياتها ، فنعرف ما بقى لها من العمر. وقال: «إن الصورة الروحية لكل من هذه الأطوار ومدتها وسرعتها ولبابها وإنتاجها تمكننا من الوقوف على ما بقى لأى حضارة راهنة من سنوات القوة». وقال إن حضارة الغرب قد خلّفت وراءها مرحلة الخُلُق الحضارى ، ودخلت فى مرحلة التأمل والاستمتاع المادى (التى يعتبرها شبنجلر مرحلة النضج الكامل لأى حضارة) فلم يبق للغرب إلا مرحلة (الانحدار أو الأفول Verfall )، وقال:

**«إن إعادة الشباب إلى حضارة الغرب وتجديدها مستحيل استحالة إعادة الشباب إلى حيوان أو إنسان أدركته الشيخوخة» .**

وقد كان غضب المؤرخين فى الغرب على شبنجلر شديداً وقاسياً بسبب هذه النبوءة السوداء، وهاجموا كتابه ومنهجه ، وعلقوا أهمية كبرى على بعض الأخطاء التاريخية التى وقع فيها فى دراسته الواسعة المدى ، فتعرض بسبب ذلك لمتاعب كثيرة، وزادت متاعبه عندما قام النظام الهتلرى فى ألمانيا ، ولم يرض الاشتراكيون الوطنيون (النازيون) عن آرائه ، وتوفى فى ميونيخ فى ٨ مايو ١٩٣٨م أسيفاً وحيداً [١].

**أرنولد توينبى :**

وكانت تجربة شبنجلر حافزاً للكثيرين للقول بأنه خير للمؤرخ أن يقتصر على عمله العلمى، وهو دراسة ما يتولى من موضوعات التاريخ على المنهج التاريخى الصحيح، ويترك جانباً موضوع البحث عن قواعد وقوانين عامة، وهذا هو الذى رفع مقام كولنجوود إلى المستوى الذى ذكرناه، وتبين أن عكوف المؤرخ على عمله ـ على هذه الصورة ـ يمكّنه من الخروج فى الموضوع الذى يبحثه بنتائج، ربما كانت أهم بالنسبة للفكر الفلسفى من المحاولات المتعثرة لتقنين مسار التاريخ .

وكان أرنولد توينبى فى جملة هؤلاء الذين عكفوا على دراستهم التاريخية فى جد بالغ. كان موضوع دراسته وتخصصه هو تاريخ الإغريق وأدبهم، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى كان يقرأ على تلاميذه فى جامعة أوكسفورد درساً فى الحرب البلوبونيزية، ويشرح لهم كلام ثوكيديدس عنها. وهنا خطر بباله أن الحرب التى يصفها ذلك المؤرخ الإغريقى بين كتلتى بلاد اليونان اللتين تزعمتهما أثينا وإسبرطة شبيهة ـ إلى حد كبير ـ بالحرب العالمية التى اندلعت، ووقفت فيها

---

( ١ ) انظر :

R. G. Collingwood, Oswald Spengler and the Theory of Historical Cycles .

بحث نشر فى مجلة: 1927 ( Antiquity ) .

P. A. Sorokin, Social Philosophies in an Age of Crisis ( 1950 ) .
M. Schroeter, Metaphysik des Untergangs ( 1949 ) .

عبد الرحمن بدوى : شبنجلر ـ القاهرة ١٩٤٧ م .

بريطانيا وحلفاؤها ضد ألمانيا وحليفاتها . وأن التاريخ ربما كان يعيد نفسه حقّاً ، كما قال ثوكيديدس، وأن شبنجلر لم ينفق وقته عبثاً فى بحثه وراء نظام للمسيرة التاريخية. وتوينبى من أولئك الذين لم يدخلوا ميدان التاريخ عن طريق الاحتراف، بل لأنه كان يحس أن تيار التاريخ يتدفق فى شرايينه كما تجرى الشاعرية فى كيان من خلقه الله ليكون شاعراً. وبعد أربع سنوات قضاها مدرساً فى أوكسفورد (١٩١٢ـ ١٩١٥م)، انتقل إلى لندن أستاذاً للتاريخ البيزنطى، واللغة اليونانية المعاصرة (١٩١٩ـ ١٩٢٤م)، وهنا بدأ اتصاله بالدولة العثمانية والمسألة الشرقية عموماً، وهنا أيضاً درس عليه المؤرخ المصرى محمد شفيق غربال وارتبط معه بصداقة كان لها أثر بعيد على تفكير توينبى وشفيق غربال معاً. ومن سنة (١٩٢٥م) إلى سنة اعتزاله (١٩٥٥م)، كان توينبى أستاذاً للتاريخ الدولى فى لندن ، وكذلك مديراً للدراسات فى المعهد الملكى للشئون الدولية: Royal Institute for International Affairs .

وفى سنة ١٩٢٢م بدأ فى كتابة دراسته الواسعة للتاريخ التى دلّل فيها ـ ضمن أشياء كثيرة ـ على حقيقة استمرار التاريخ، وأن الماضى والحاضر يربطهما بالفعل رباطٌ حقيقىٌّ لا شك فيه. ولقد استوقف نظر توينبى ـ وهو يتتبع أخبار الحرب العالمية ـ أن البلغاريين كانوا يلبسون قلانس من فراء الثعالب، وكذلك كان جنود أجزرسيس ملك الفرس فى حربهم مع الإغريق، فكأن لا شىء فى الحضارة يموت موتاً نهائياً.

يقوم كتاب توينبى على دراسة عامة شاملة لتاريخ البشر، على اعتبار أن هذا التاريخ يتكون من سلسلة من التجارب السياسية، وصل كل منها إلى قمته فى صورة حضارة قائمة بذاتها، فالتاريخ الإسلامى بمجموعه ـ فى نظره ـ تجربة واحدة خلاصتها هى الحضارة الإسلامية، فاختار توينبى من هذه الحضارات إحدى وعشرين، ومضى يدرس كُلاً منها دراسة عميقة شاملة على حدة، فتجمعت له بذلك ثروة من العلم التاريخى ـ ربما لم تتوفر لمؤرخ آخر قبله، وهذه الثروة هى التى تبهر قارئ كتابه، وتجعله يتغاضى عن بعض الأخطاء فى التفاصيل.

وتبين توينبى أن تاريخ كل أمة من الأمم التى اختارها موضوعاً لدراسته ، إنما هو استجابة لتحدى الظروف التى وجدت فيها. ويرى توينبى أن أى مخلوق حى يجد نفسه بمجرد خلقه أمام عوامل تعمل على فنائه والقضاء عليه، فما من حيوان إلا وله أعداؤه، بالإضافة إلى ظروف المناخ والغذاء، وهى ليست دائماً مواتية. ومن هنا فإن الحياة فى ذاتها تحدٍّ للكائن الحى، ومواجهته لظروفه ومحاولته التغلب عليها والاستمرار فى عالم الأحياء هى استجابة لذلك التحدى.. من هنا تنبه توينبى إلى حقيقة التحدى والاستجابة Challenge and Response التى تعتبر مفتاح نظرته العامة للتاريخ .

وعند دراسة توينبى للحضارات التى اختارها تبين أن المجموعات البشرية تقودها دائماً جماعات من القادة وأصحاب الرأى، وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة فى استجابتها للتحدى، ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم. فإذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التى تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التى تواجهها والسير إلى الأمام، كانت هذه الجماعة موفقة، وسار تاريخ الجماعة إلى الأمام؛ لأن الاستجابة هنا ابتكارية أو ابتداعية Creative Response، ولا تزال الأمة فى صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية، فإذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى، وربما توقف. وبينما كان شبنجلر ـ مثل ابن خلدون ـ يرى أن الاستجابة الابتداعية تصل إلى ذروتها ثم تتوقف؛ أى أن موت الحضارات لا مفر منه، يرى توينبى أنه من الممكن أن تستمر الحضارة فى الاستجابة الابتداعية، ولا تموت بذلك. ويضع توينبى فى دراسته العوامل الفكرية والروحية فى المقدمة، خلافاً لما كان يفعله ماركس من تقديم النواحى والعوامل المادية على غيرها.

وقد أخذ توينبى عن المفكر الأمريكى **ف.ج. تيجارت** F.J. Tegart فكرة انتفع بها فيما بعد فى دراسته، وهى أنه لكى نفهم تاريخ حضارة ما، علينا أولاً أن نقرأ عنها فى توسع حتى نهتدى إلى روحها ولبابها.. وهذا هو مفتاح فهمها، فإذا كان فى يدنا هذا المفتاح، عدنا نقرأ تاريخ هذه الأمة وتجربتها السياسية والحضارية

فنجد أنفسنا قادرين على إدراك حقائق هذا التاريخ ومعرفة مواضع قوته وضعفه . وأفاد توينبى كذلك من دراسة علم النفس على مذهب **يونج** Jung أحد تلاميذ فرويد ، ويونج من أقدر من درس موضوع نفسية الجماعات ، وهى تختلف ـ كما هو معروف ـ عن نفسية الأفراد .

وجد توينبى أن كل الحضارات التى يدرسها مرت بأطوار متشابهة فى النمو واستمرار التقدم وزيادة القوة، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية، يليها تصدع العناصر التى قامت عليها قوة هذه الحضارة، وربما انتهى الأمر بتفككها أو تصدعها، ويعقب ذلك تحولها إلى دولة عالمية Universal state أى أن عناصر قوتها تتفرق فى الشعوب التى كانت تتكون منها كما حدث مثلاً بالنسبة لدولة الرومان، فقد قامت على العنصر اللاتينى الرومانى الذى كان يُكوِّن الأقلية القائدة التى قادت الرومان فى تاريخهم الأول بما لديها من قوة الخلق والابتداع، وتمكنت من إنشاء الإمبراطورية وسيادتها، ثم مرت فى حقبة الاضطراب الداخلى وحروب ماريوس وسولا، وصراع الأخوين جايوس وتيبريوس جراكوس فى سبيل الإصلاح الداخلى، ثم حروب قيصر وأوكتافيوس وقيام الإمبراطورية، وهنا تصل الدولة الرومانية إلى قمة قوتها، وتأخذ وحدتها فى التصدع ثم التفكك، وتنتقل حضارتها وعناصر قوتها إلى الشعوب التى كانت تحكمها، أى أنها تحولت إلى دولة عالمية أو حضارة عالمية. ومن السهل على المؤرخ العربى أن يتتبع سير هذه العملية فى تاريخنا العربى الإسلامى نفسه.

ويقول توينبى: إن النموذج العادى للتفكك الاجتماعى فى حضارة من الحضارات يأخذ صورة انشقاق فى صفوف الجماعة القائدة أو الصفوة The Elite وظهور الطبقة العاملة إلى الميدان وتحديها للقوة الحاكمة . ويقترن ذلك بعجز هذه الطبقة عن الثبات لذلك التحدى بسبب التصدع فى بنيانها وعجزها عن الاستجابة إبداعياً للتحدى ، وشيئاً فشيئاً تفقد القيادة سيادتها، وتميل الأمور إلى الفوضى ، وقد يتم ذلك على مراحل تحاول القوة الحاكمة فى كل منها استعادة سلطانها، ثم تفقده، وفى آخر الأمر ـ وكَحَلٍّ وسط للمشكلة ـ تترك جانباً من

السلطان للطبقات أو الجماعات الأخرى فى الدولة . أى أنها تتحول تحت ضغط الظروف إلى دولة عالمية أو عامة ـ كما ذكرنا ـ وهنا نجد الطبقة العاملة أو البروليتاريا التى أحدثت هذا التغيير الشامل تجعل من مبادئها التى نادت بها فى أثناء تحديها للسلطة الحاكمة عقائد ثابتة، وتنشئ ما يمكن أن يسمى بهيئة أو قوة عقائدية عامة Universal Church ، وهذه العقائد العامة هى التى تبقى بعد تفكك الدولة وزوالها، وتصبح نواة لبناء دولة أو قوة جديدة .

وقد كتب توينبى المجلدات الستة الأولى من تاريخه قبل الحرب العالمية الثانية فى ظروف سادت أوربا فيها موجات من التفكك والضعف واليأس، ولكن الحرب العالمية الثانية جددت إلى حد ما نشاط الحضارة الغربية، فلما عاد يستتمّ كتابه بعد نصر الحلفاء كتب المجلدات الأربعة الباقية بروح من التفاؤل تختلف عن روح الأجزاء الأولى، وقال : «إذا كانت هناك مركبة تسير إلى الأمام فى طريق رسمه لها قائدها فلابد أنها تسير محمولة على عجلات تدور وتدور فى حركة منتظمة راتبة، فإذا تصورنا أن حضارة البشر هى هذه المركبة، وأن عجلاتها تضعف وتتهشم فى أثناء السير الطويل لتحلّ محلها عجلات أخرى، تبيّنّا أن هذا التعاقب فى تغيير العجلات يعنى: تجدد قوة الحضارة وعودتها إلى الشباب، واستمرار سير الحضارة يدل على أن اتصال هذا المسير مقدَّر فى ذاته، ولابد أن يكون هناك ـ نتيجة لهذا ـ تقدير إلهى أعلى يُسيِّر هذه العملية، ويجعل من فشل حضارة من الحضارات عنصر قوة وبناء لحضارة تليها .

ومعنى ذلك أن توينبى لا يرى ضيراً أو شراً فى اضمحلال الحضارات؛ لأن تجاربها لا تذهب سدى، بل تنتقل إلى غيرها، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة أو عنصراً من عناصر قوتها . ومن هنا فهو يقول: إن التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماماً، وإنما الذى يحصل فى الغالب أن الحضارة بعد أن تتم دورتها على يد أمة من الأمم تذبل وتجمد أو تتحجر Petrifies، ثم تتفكك وتنتقل عناصرها إلى أمة أو أمم جديدة لتقوم حضارة أو حضارات جديدة . وقد كان توينبى يكتب هذا التاريخ فى نفس الوقت الذى كان يشرف فيه على تحرير دورية سنوية كان يصدرها المعهد الملكى للشئون الدولية تسمى :

«عرض للشئون الدولية : Survey of International Affairs».

أى أنه كان يتابع سير التاريخ الحاضر فى نفس الوقت الذى كان يقلِّب فيه دفاتر الماضى، مما أعطى دراسته للماضى نفسه طابعاً من الحاضر بث فيه حيوية وقوة وواقعية . وتوينبى نفسه قال إنه ما كان يمكنه أن يقوم بأى من العملين على شكل ناجح، لو لم يكن يقوم بالآخر فى نفس الوقت؛ لأن تتبع سير التاريخ الحاضر وفهمه لا يتمان إلا إذا أخذ الإنسان فى اعتباره سير الحوادث فى الماضى أيضاً. وأى مؤرخ ناجح لابد أن يكون متتبعاً لأحداث عصره فى نفس الوقت الذى يدرس فيه ما مضى من الأحداث؛ لأن مادة التاريخ واحدة ، وهى الإنسان، ولبابه واحد، وهو الحضارة؛ فلابد لمن يدرس حمورابى، أو أخناتون، أن يكون متتبعاً لرجال عصره، مثل : غاندى، ولينين، وأتاتورك، وفرانكلين ديلانو روزفلت.

وتلك هى الميزة الكبرى لنظرة توينبى للتاريخ، فهو يدرسه على أنه كلٌّ واحد، أو تجربة واحدة تمت على مراحل أو دورات، وإذا كان كل من سبقوه من مفلسفى التاريخ فى الغرب قد ركزوا على تاريخ الغرب بادئين بالمصريين القدماء.. فالإغريق، فالرومان، ومنتهين بالثورة الفرنسية والقرن التاسع عشر، فجاءت دراستهم ناقصة، لأنها قامت على فهم ناقص للتجربة الإنسانية العامة، فإن توينبى أدخل فى اعتباره تجارب أمم الشرق جميعاً، وأنفق جهداً ضخماً فى فهمها وتقديرها، بل أدخل فى اعتباره التجارب الحضارية للهنود الحمر قبل الكشف الكولومبى؛ ومن هنا كانت دراسته إنسانية عامة، وإن سيطر عليها شعوره المسيحى البروتستانتى، وإذا كان بعض النقاد قد قالوا عنه إنه يتكلم أحياناً كواعظ مسيحى ، فإن من الحق أن يقال إنه فى معظم تاريخه يصدر عن إحساس إنسانى عام، قائم على الإيمان بوحدة الإنسانية وتجربتها الحضارية.

وتوينبى لا يعد نفسه فيلسوفاً أو مفلسفاً للتاريخ، ويكتفى بالقول بأنه مؤرخ، أما كبار مؤرخى العصر من أمثال **يوهان هويتسنجا** Johan Huizinga، فينكرون عليه هذه الصفة، ويكتفون بالقول بأنه شاعر، ويضيفون أنه أدخل على التاريخ

عنصراً شاعرياً إنسانياً، ولكنه لم يكتب تاريخاً حقيقياً منهجياً كما يرون. وأرنولد توينبى لا يغضب من هذا الموقف، ويقول إن هدفه من كتابه «دراسة التاريخ» كان تعريف الأمم بعضها ببعض، واطلاع كل منها على التجربة السياسية والحضارية للأخريات، وهذه المعرفة من شأنها أن تقلل من كراهة الأمم بعضها لبعض، وتخفف من خوفها وتفتح باباً من أبواب التفاهم الإنسانى. وهذا فيما نعتقد يكفيه.

ونلاحظ أن معظم نقاد توينبى ومنكرى فضله هم من اليهود، أو ممن يميلون إلى الأخذ بدعاياتهم.

**ولقد اجتهد اليهود خلال نصف القرن الأخير فى تضخيم قدر ما يسمى بدولتهم فى جزء من فلسطين ؛ لكى يجعلوا من ذلك سنداً لدعواهم العريضة فى القول بأنهم أساتذة الإنسانية، فجاء توينبى وقاس الأبعاد السياسية والحضارية لتلك الدولة ووضعها فى وضعها الصحيح ، وفى كلامه عن العقيدة اليهودية بيّن زيف الدعوى التى روجها اليهود، التى تقول إن مفكريهم هم أصل الأديان السماوية، وإن النصرانية والإسلام تحريفات لها ... فكشف توينبى زيف ذلك كله، وأثبت دون تحامل أو قصد معين أن هذه كلها مزاعم من صنعة اللاهوتيين والسياسيين اليهود فى العصر الحديث، وأعطى المسيحية حقها، وتكلم عن الإسلام عن فهم ـ أو محاولة صادقة للفهم على الأقل ـ فكان هذا كافياً لإثارة حملة أولئك عليه؛ وهى حملة سياسية فى حقيقتها، ولا قيمة علمية لها.**

وفى كتاب «دراسة التاريخ» نرى كيف تمكن توينبى من المصالحة بين علمى الاجتماع والتاريخ على أحسن صورة ممكنة، فهو فى الواقع مؤرخ وعالم اجتماع. وهو إذ يتحدث مثلاً عن حضارة مصر القديمة، يجتهد فى أن يعطيك صوراً للمجتمع المصرى القديم؛ لأن الحضارة لا تتجلى فى مبتكرات أهل العبقرية بقدر ما تتجلى فى مستوى معيشة الجانب الأعظم من الشعب، ومن هنا فإن توينبى لا يتحمس حماساً شديداً لعصر النهضة الأوربية لمجرد أنه أطلع رجالاً من أمثال **مايكل أنجلو**، لأن الفلاح الإيطالى كان يعيش أتعس أيامه خلال

ذلك العصر المضطرب، ومن هنا نستطيع القول أنه حتى الذين يريدون أن يقولوا إن أرنولد توينبى ليس مؤرخاً، لابد أن يسلّموا بأنه فتح فى التاريخ فتحاً إنسانياً لم يوفق إليه مؤرخ قبله .

* * *

إلى هنا نستطيع أن نقف بهذا البحث ، فقد قطعنا فيه رحلة اثنين وعشرين قرناً من جهد علماء الغرب فى إثبات قدر علم التاريخ، وللوصول به إلى ما هو عليه اليوم، ولم يكن لنا مفر فى أثناء هذا العرض من الاستطراد عن أعلام لهم قدرهم فى هذا المجال من أمثال **ف.و. ميتلاند** F.W. Maitland (١٨٥٠-١٩٦٠م) صاحب الفضل الأكبر فى نشاط نشر الوثائق الأولى فى إنجلترا، وهو مشهور بنشره لمذكرات **براكتون** Practon's Note Book (١٨٩٥م)، وكان براكتون محامياً فى القرن الثالث عشر، ومذكراته حافلة بالكلام عن الصور الاجتماعية والمعاملات فى عصره، وهذه المذكرات تشبه فى قيمتها العلمية وثيقة «يوميات كاتب الشونة» التى نشرها عزت عبد الكريم، وألقى بذلك ضوءاً باهراً على حياة الناس فى الشام فى العصر العثمانى. و**بول فينوجرادوف** Paul Vinograd-of(١٨٢٤ - ١٩٢٥م) ذلك المهاجر الروسى الذى أنشأ فى مانشستر بإنجلترا مدرسة من أصلب مدارس العلم التاريخى، والمؤرخ الأمريكى **ماكلوين** C. H. Mackelwain، أستاذ التاريخ فى هارفارد، ورئيس الجمعية التاريخية الأمريكية American Historical Association، وهو صاحب فضل كبير فى تعريف الأمريكيين بالقيمة الكبرى للوثائق التاريخية أيّاً كانت، و **ل. ب. نامير** L. B. Na-mier (١٨٨٨-١٩٦٠م)، الذى تعتبر مؤلفاته إلى جانب مؤلفات ميتلاند نماذج للتاريخ العلمى المستكمل الشروط.

**التاريخ الشامل أو الكلى وأهم أعلامه :**

وهؤلاء الأساتذة جميعاً يسيرون فى التاريخ على مذهب التاريخ الشامل Total History ، أى: الدراسة الشاملة للفترة أو الظاهرة التى ندرسها ، فإذا كنت مثلاً تدرس موضوع الضرائب فى عصر الدولة الأيوبية ، فلابد لك من أن تدرس

الدولة الأيوبية دراسة كاملة من كل نواحيها، وتلمّ بتاريخها السياسى والعسكرى والاقتصادى والثقافى، وتدرس ـ إلى جانب ذلك ـ أحوال العالم الإسلامى كله فى ذلك العصر، وذلك لكى تستطيع أن تتكلم فى موضوعك عن ثقة وتمكن، ولامفر من هذه «الكلية» Totalité لمن يريد أن يقوم بدراسة تاريخية جديرة بالتقدير.

ولم يتبع هذا المنهج اتباعاً صادقاً ـ ووصل فيه إلى مداه ـ أحد مثلما فعل أبناء المدرسة الفرنسية العريقة، التى عرفت بمدرسة الأنال، أى : الحوليات L'Ecole des Annales التى ذكرناها.

ففى هذه المدرسة الأصيلة التى تكونت حول الجماعة التى أنشأت دورية الأنال، ظهر نتيجة لجهود أهل هذه المدرسة رعيل فحل من المؤرخين الفرنسيين الذين بلغوا الذروة فى كمال البحث وأصالته، حتى قال واحد منهم وهو Arés آرييه: إن كل ما ننفق فيه الوقت من دراسة الحوادث السياسية والعسكرية ووقائعها، ربما لا يكون فى الحقيقة إلا الواجهة الظاهرة للتاريخ La face apparente de l'histoire . وإن التاريخ الحقيقى يقع وراء ذلك فى حياة الناس العاديين ومستوى معيشتهم وأفكارهم وآمالهم ومخاوفهم؛ وهو لهذا يحذر من التاريخ السطحى L'histoire superficielle، الذى ينزلق إليه الكثيرون، فيجرون وراء تتبع الحوادث ذات الدوى الكبير، ومع ذلك فربما لم يكن لها فى الوعى الإنسانى أثر.

فعلى المؤرخ ـ إذن ـ أن يبحث عن الأصيل والدائم ، عن اللباب دون القشر.

ومن أمثلة الدراسات الشاملة على مذهب مدرسة الحوليات ذلك الكتاب المبدع الذى كتبه **فرديناند برودل** Ferdinand Braudel ، الأستاذ المعاصر فى السوربون عن عالم البحر الأبيض فى أيام فيليب الثانى : La Méditerranée et Le Monde Méditerranéen a L' Époque de Philippe II (1949) وهو كتاب شامل يدرس البحر المتوسط فى عصر الصراع الضخم بين الأتراك العثمانيين والإسبان والبلاد الأوربية على سيادة ذلك البحر، وقد درست على هذا الرجل وربطتنى به صداقة كبيرة أيام كنت أدرس تاريخ إسبانيا فى السوربون، وكنت فى جملة طلاب

قاعة بحثه Séminaire فى المدرسة العليا العملية فى جامعة باريس، ورأيت استهلاكه نفسه فى تكوين تلاميذه وتدريبهم على التأريخ على مذهب البحث الشامل؛ ولكى يصل الرجل إلى بحثه هذا، درس جغرافية البحر الأبيض دراسة مستفيضة، واستخرج ما سماه بشخصية البحر المتوسط التاريخية: La Personalité Historique de la Méditerranée ، ويتجلى هذا فى الجزء الثانى من كتابه الذى يدرس فيه وحدة النظم الاقتصادية والنظم السياسية التى سادت فى معظم الدول التى قامت على حوض هذا البحر. وبعد هذا كله يدرس برودل فى الجزء الثالث حوادث الصراع على سيادة هذا البحر خلال القرن الخامس عشر الميلادى، وهو يسمى هذا الجزء :

«تاريخ حافل بالأحداث Histoire événementielle»

وعلى نفس الطريقة سار **شارل لابروز** Charles Labrousse، فى كتابه المبدع عن الثورة الفرنسية الذى حلل فيه النظام القديم، أى : النظام الملكى L'Ancien Régime، تحليلاً اجتماعياً فكرياً ونفسياً بالغ العمق والشمول، يجعل من كتابه هذا خير ما يعرِّف الإنسان بالثورة الفرنسية وأسبابها، والظروف التى قامت فيها.

ويضاهى برودل ـ فى سعة الأفق وشمول البحث والتأريخ على مذهب التاريخ الشامل ـ **بيير رينوفان** Pierre Renouvin، الذى تخصص فى دراسة العلاقات السياسية فى العصر الحديث، وهو من الذين يرون فى أحداث التاريخ السياسى مجرد مظهر سطحى للواقع التاريخى الأهم، وهو جماع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تدفع بالجماعات الإنسانية إلى التصرف على هذا الوجه أو ذاك. ويظهر رينوفان ذكاءً بعيداً، وسعة رائعة فى الأفق عندما يتكلم عن أثر الدولة والسياسة فى تشكيل الصورة العامة لنشاط الأمة كلها وأهميتها فى المجتمع الدولى، ويُظْهِر كذلك براعة فى تحليل ما يسميه بالسياسة الكبرى la Grande Politique ، أى: التيارات الضخمة التى تسيِّر سياسات الدول الكبرى، ويتجلى ذلك كله بصورة واضحة فى كتابه عن تاريخ العلاقات الدولية Histoire des Relations Internationales الذى ظهر سنة ١٩٥٣م، وفيه تتجلى

الميزة الكبرى لمدرسة الحوليات، وهى القدرة على عرض المشكلة عرضاً سليماً شاملاً، وهو ما يسمى بالموضوع أو الرأى La Thèse، ثم دراستها دراسة نقدية شاملة، وهو ما يسمى بالرأى المضاد Antithèse، ثم الخروج بعد ذلك بالخلاصة التحليلية المركزة التى تسمى جمع الأطراف أو لَمّ أطراف الموضوع La Synthèse، وكل بحث فى التاريخ لابد أن يسير على هذا النمط، ويجمع المراحل الثلاث.

وبمناسبة الخلاصة التحليلية أو لَمّ أطراف الموضوع الذى بلغت به مدرسة الأنال(أى: الحوليات) ما بلغت من مكانة فى تاريخ العلم التاريخى، نقف لحظة عند واحد من أكبر ممثلى هذه المدرسة وهو **مارك بلوك** Marc Bloch، الذى اشتهر أمره بكتابه البديع عن المجتمع الإقطاعى La Société Féodale، الذى ظهر أول ما ظهر سنة ١٩٣٥م، وعُدَّ فى ذلك الحين فتحاً فى التأريخ للعصور الوسطى وتحليل مجتمعها الإقطاعى تحليلاً اقتصادياً اجتماعياً وإثنوجرافيًا بالغ العمق.

ولقد أدخل **بلوك** على كتابه تعديلات فى طبعات تالية، ولكن النظْرية الرئيسية فى الكتاب ظلت كما هى، وملخصها أن التركيب الاجتماعى الاقتصادى، ينبغى أن يكون الأساس لكل تحليل تاريخى: «La Structure sociale et economique doit être le noyau de toute synthése historique».

وقد بسط مارك بلوك رأيه هذا فى دراسة مشهورة عن أزمة العلم التاريخى فى فرنسا La Crise de la Science Historique en France وفى هذا البحث تطرق إلى دراسة المجتمع الفرنسى كله قبيل الحرب العالمية الثانية، والهزيمة التى انتهت إليها. قال: « إن هزيمة فرنسا كانت قبل كل شىء هزيمة للذكاء والخُلق الفرنسيين:

«La défaite de la France a été, avant tout, une défaite de L'intelligence et du caractère francais».

وقد أتيت بهذه العبارة بنصها، أملاً فى أن تدعو بعضنا إلى التفكير فى أزمة العرب الحالية على هذا الأساس، أو فى هذا الاتجاه على الأقل.

هؤلاء ما هم إلا نماذج من عشرات المؤرخين العاملين اليوم فى جامعات الدنيا فى خدمة هذا العلم الإنسانى الخالص الذى يدور حول الإنسان وتجاربه على سطح هذا الكوكب ، وما أدرك من توفيق ، وما أصابه من نكسات ، وما صادف من مآس.

هؤلاء الناس ـ المؤرخين أقصد ـ يحاولون جهدهم النفاذ إلى الماضى الطويل المظلم وإلقاء الأضواء عليه، لعل معرفتنا بالماضى تمكننا من فهم الحاضر، والنظر فى شىء من الفهم وحسن التقدير للمستقبل، وهم يبذلون فى ذلك جهداً شاقاً فى الاطلاع والدراسة والتحليل والتفكير ، ولكن قلَّ أن يقدِّر مجهودهم أحد، ولا يعرف الشوق إلا من يعانيه، كما قال جيته.

ومن سوء الحظ أن التاريخ ـ وعندنا خاصة ـ مَرْكَبٌ سهل يتخذه كل صاحب قلم أعوزه موضوع يكتب فيه، أو تطلع إلى الشهرة وحسن القالة بين الناس وشىء من المال، فما أسرع ما تمتد يده إلى موضوع ضخم من موضوعات التاريخ الإسلامى ثم ينشئ فيه كتاباً، ربك ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بما فيه. ورفوف المكتبات العربية مثقلة بالدراسات التاريخية، ومعظم ما فيها تصورات وتأملات وفروض، وتملُّق للقارئ الطيِّب القلب. ونادراً ما تقع عينك على كتاب فيه بضع صفحات ـ من مئات ـ تبرر قراءته، فضلاً عن تأليفه .

لقد رأيت الجهد الشاق الذى بذله رجال الغرب فى نقل التاريخ من هواية إلى علم، ومن حكايات وأساطير إلى دراسات وحركات فكرية هى الغاية فى العمق والشمول. ونحن عندما نقرأ كتاباً مما ألِّفوا، إنما نمسك بالثمرة، ولكننا نادراً ما نفكر فيما وراءها من الجهد والتعب وسنوات العمر التى انقضت ليلة بعد ليلة بين وثائق لا تُقرأ ، ومخطوطات كأنها الطلاسم، ومصطلحات لا تُفهم إلا بعد البحث الطويل ، والعناء الشاق فى تتبع الأصول والعوامل والأسباب، وليس فى الدنيا عالم هو أقل كسباً ـ من وراء ما يكتب ـ من المؤرخ، فيما عدا أولئك القلائل الذين ألممنا بذكرهم فى هذا العرض السريع. وهل يعرف الناس مثلاً قدر الجهد الذى بذلته تلك الجماعة الصادقة من المؤرخين الذين أنشأوا دورية الأنال، أى: الحوليات Annales de L'histoire Economique et Sociale التى ظهر عددها الأول فى فبراير ١٩٢٩م، ولا تزال تصدر إلى اليوم؟.

هل يذكر ـ إلا القليلون ـ فضل **لوسيان فيفر** Lucien Févre، **وألبير ديمانجون** Albert Demaneon ،**وهنرى هاوزر** Henri Hauser ، **وأندريه سيجفريد** André Siegfried ، **وهنرى بيرين** Henri Pirenne ، الذى ذكرناه وغيرهم كثيرين ، ممن قاموا على إنشاء هذه المدرسة الجليلة؟!..

ولكن لا بأس ، فإن العلم جهاد ومشقة وصمت ، والتاريخ يستحق هذا الجهد كله، فهو سجل الماضى وصورة الحاضر والمرشد إلى الغد؛ إنه يسير فى طريقه قائماً بنصيبه المتواضع فى الكشف عن المجهول فى أمانة وصدق، وعلى أسس علمية سليمة أنشأها أهل العلم فى صبر وصمت وتضحية، على طول أحقاب متطاولة، كما رأيت .

***